

**تأصيل فقه العمران
عند الإمام علي (عليه السلام)
مقاربة في عهده مالك الأشتر (رضي الله عنه)**



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ٤٢١١ لسنة ٢٠١٧

سلسلة دراسات في عهد الإمام

علي (عليه السلام) لمالك الأشتر (رضي الله عنه) (٣٠)

وحدة الدراسات الاقتصادية

تأصيل فقه العمران

عند الإمام علي (عليه السلام)

مقاربة في عهده لمالك الأشتر (رضي الله عنه)

تأليف

م. د. حيدر حسن الأسدي

إصدار
من سلسلة دراسات في عهد الإمام
علي (عليه السلام) لمالك الأشتر (رضي الله عنه)

جميع الحقوق محفوظة
العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

1439 هـ - 2017 م



العراق - كربلاء المقدسة - شارع السدرة مجاور مقام علي الأكبر

مؤسسة علوم نهج البلاغة

هاتف: 07728243600 - 07815016633

الموقع الإلكتروني: www.inahj.org

الإيميل: Inahj.org@gmail.com

تنويه:

إن الأفكار والآراء المذكورة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها،
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة:

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء
بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها
والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله
الطاهرين.

أما بعد:

فإن من أبرز الحقائق التي ارتبطت بالعترة النبوية
هي حقيقة الملازمة بين النص القرآني والنص النبوي
ونصوص الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

وإن خير ما يُرجع إليه في المصاديق لحديث

الثقلين «كتاب الله وعترتي أهل بيتي» هو صلاحية النص القرآني لكل الأزمنة متلامزماً مع صلاحية النصوص الشريفة للعترة النبوية لكل الأزمنة.

وما كتاب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الأشتر (رحمته الله) إلا أنموذجٌ واحدٌ من بين مئات التي زخرت بها المكتبة الإسلامية التي اكتنزت في متونها الكثير من الحقول المعرفية مظهرة بذلك احتياج الإنسان إلى نصوص الثقلين في كل الأزمنة.

من هنا:

ارتأت مؤسسة علوم نهج البلاغة أن تخصص حقلاً معرفياً ضمن نتاجها المعرفي التخصصي في حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وفكره، متخذة من عهده الشريف إلى مالك الأشتر (رحمته الله) مادة خصبة للعلوم الإنسانية التي هي أشرف العلوم ومدار بناء الإنسان وإصلاح متعلقاته

الحياتية وذلك ضمن سلسلة بحثية علمية والموسومة بد(سلسلة دراسات في عهد الإمام علي (عليه السلام) مالک الأشتر (رضي الله عنه)، التي يتم إصدارها بإذن الله تباعاً، حرصاً منها على إثراء المكتبة الإسلامية والمكتبة الإنسانية بتلك الدراسات العلمية التي تهدف إلى بيان أثر هذه النصوص في بناء الإنسان والمجتمع والدولة متلازمة مع هدف القرآن الكريم في إقامة نظام الحياة الآمنة المفعمة بالخير والعطاء والعيش بحرية وكرامة.

والبحت الموسوم بد(تأصيل فقه العمران عند الإمام علي (عليه السلام) مقاربة في عهد مالک الأشتر (رضوان الله عليه) تضمن دراسة مفصلة للمظاهر العمرانية التي أوردتها الإمام عليه السلام في العهد الشريف وبيّن أهمية هذا الجانب في بناء الإنسان وكذلك دور العمران في استقرار الحكم وحفظ الأمن وكسب رضی الله والرغبة في أداء

عمل الحاكم، وبيّن أيضاً المرتكزات التي يقوم عليها عمران البلاد وضرورة أن يأخذ الحاكم بنظر الاعتبار إضافة الى فقه العمران واجراءاته التي يجب أن تكون بالتساوي على الجميع.

فجزى الله الباحث كل خير فقد بذل جهده وعلى الله أجره والحمد لله رب العالمين.

السيد نبيل الحسيني الكربلائي
رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد واله الطيبين الطاهرين، وبعد: يستمد فقه العمران وجوده من التصور الإسلامي العام للكون، وربما المعنى اللغوي للفقه يعين على ذلك، وعليه ليس بالضرورة اقتصار المجتهد المعاصر على تلك الموضوعات التي كانت محل ابتلاء في الماضي، إذا ما اريد للفقه مدى اوسع (الفهم والتمكن)، وان كان التعريف الاصطلاحي محدد بـ «العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من ادلتها التفصيلية» لكن ذلك لا يمنع من بحث الموضوعات ذات الافق الابعد، طالما تنتهي مرجعيتها الى القران الكريم والسنة الشريفة، وللعقل.

وعليه لا بد من معالجة الجوانب ذات الصلة المنهجية والمعرفية بفقه السياسة وإشكالاته، إذ من المعروف وجود قراءات، وربما تنظير حول «شكل الدول وأحوالها ومدى استمرارياتها»، والتملك والتغلب وأنواعه وكيف ينتهي به المآل.

ولذلك سلط البحث الضوء على ثلاثة أمور تضمنها نهج البلاغة ولم تعط حقها بشكل كاف من قبل كثير من الباحثين:

الأولى: الرؤية العامة للعمران البشري، خصوصاً في نهج البلاغة

الثانية: ارتباط العمران بوجود مجال سياسي واجتماعي واقتصادي للدولة لكي ينتظم.

الثالثة: التعامل العلوي العملي مع الضبط النظري والمنهجي لفقه العمران.

لقد كان ابن أبي الحديد في منتهى الدقة والإنصاف

حين وصف هذا (العهد) بأنه: نسيج وحده، ومنه
تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة...
وحقيق مثله أن يُقتنى في خزائن الملوك.^(١)

في ضوء هذه المحاور العامة للبحث نوقش
الرأي السائد القائل بأسبقية ابن خلدون في التنظير
للعمران، وهذا لا يعني إنكار اثر واهمية التنظير
الخلدوني، و(يظن البعض ان ابن خلدون هو
«مبدع» فلسفة التاريخ أو «حكمته» والذي سماه
بعلم العمران والاجتماع البشري، لا يعترض على
وجهة العنصر المذكور اعلاه، لكنه يجيب على أسئلة
الفلسفة حول مصادر ابن خلدون ما دام ابن الازرق
(ت: ٨٨٧هـ) قد أخبرنا في كتابه « بدائع السلك في
طبائع الملك» ان ابن خلدون قد استفاد من « النص
المقدس – والسنة النبوية الشريفة» في صياغة فلسفته
العمرانية الى جانب استفادته من منجزات المفكرين

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣١٠.

الاسلامي، حتى حددهم بخمسة الاف مفكر،
واطلع على اكثر من خمسة عشر الف)^(١)

والدارس لنهج البلاغة، وخصوصا عهد الامام
علي لمالك الاشتر، يجد انه اشار وفصل بشكل
واضح لهذه المسألة، وبعض جزئياتها مثل عمران
الدولة وبقائها وديمومتها، فمن المعلوم ان ابن
خلدون ربط ذلك بمبدأ «العصية»، وايده بعض
الباحثين امثال محمد عابد الجابري، في حين الرؤية
العلوية ترهن بقاء وعمران او زوال الدول في مدى
تعاطيها مع «الحقوق والواجبات»، مما يرجح اعتماد
البعد المؤسساتي في الادارة في الاصطلاح المعاصر.

ولما كان العمران هدفا سام في القران الكريم،
وفي السنة المطهرة للنبي الاعظم محمد (ﷺ) وسيرة

(١) د. علي حسين الجابري، مفكر و الاسلام والعمران البشري في
فلسفة الحضارة والاجتماع، المركز العلمي العراقي - بغداد، دار
ومكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١١ م.

اهل البيت عليهم السلام، حاولت البحث في «التأصيل لفقہ العمران عند الامام علي مقاربة في عهد مالك الأشر» فجاءت الدراسة على ثلاثة مباحث:

الاول: المقاربة الاصطلاحية للعمران.

الثاني: مرتكزات فقه العمران عند الامام علي (عليه السلام).

الثالث: اجرائيات فقه العمران عند الامام (عليه السلام).

وانتهى البحث الى مجموعة من النتائج، وَاخِرُ دَعْوَانَا ان الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول المقاربة الاصطلاحية للعمران ومستوياته البنيوية

لفظ (عمران) مشتق من الجذر ع.م. ر وله عدة معاني:

الأوّل «سكن، بقي، أقام، استوطن».

الثاني: «تعمير، كثافة، به ناس كثير، استصلاح، هذب جيداً، وعكسها قفر، صحراء، فظاظة»،
الثالث: يمكن لمفردة عمران أن تعني أيضاً «بناء منزل، والسكن فيه، جعله مرفها»^(١)

(١) Lane, Arabic-English Lexicon, V, p) ٢١٥٣-

(٢١٥٦). عن موقع: موسوعة الانسنة المتوسطة.

هذه المجموعات الثلاثة من المعاني تعود كلها إلى معنيين أساسيين: من جهة إلى النشاط البشري، ومن جهة أخرى، إلى العنصر الجغرافي، أي المكان الذي فيه النشاط الإنساني وتطوره^(١).

والعمارة من أعماراً وأعمارها أي جعله أهلاً وفي اللغة أعمرت الأرض وجدتها عامرة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٢)، أي أذن لكم في عمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عمارها وعمر عليه أي أغناه. وقوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ) أي أسكنكم فيها ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس أو حفر الأنهار وغيرها أي خلقكم لعمارها^(٣). وحيث إن قوله تعالى (وَاسْتَعْمَرَكُمْ)

(١) المصدر نفسه.

(٢) سورة هود: ٦١

(٣) فؤاد عبد المنعم أحمد، السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، جدة، ٢٠٠١، ص ٥١

هو طلب مطلق من الله تعالى، ومن ثم يكون على سبيل الوجوب^(١).

والاستعمار عند المفسرين هو طلب العمارة، والطلب من الله على سبيل الوجوب أي الفرض. وربط معنى العمارة المادية بالعمارة الروحية. والاستعمار هو جوهر حقيقة الاستخلاف، حيث المبدأ العام للشريعة إصلاح وعمارة الأرض، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متوجهة إلى الله، ويكون الإنسان مقتدياً على قدر طاقته البشرية بالأفعال الإلهية، متخليقاً بأخلاق الله، ساعياً نحو أعمال صفات الله في الكون، وبهذا يتحقق الاتساق بين الفعل البشري،

(١) عبد الهادي علي النجار، الإسلام والاقتصاد، سلسلة عالم المعرفة (٦٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣، ص ٦١.

والهدف أو المقصد الإلهي من وجود الكون^(١).

وكان لفظ «عمران» يستخدم للتعبير عن أفكار حول الحياة، حول الساكنة، الأماكن الأهلة، واستصلاح أرض ما وتعميرها. وبهذا المعنى نجد في القرآن ﴿وَعَمَّرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَّرُوهَا﴾^(٢)، واستعمل بمعنى أكثر واقعية بالرجوع إلى جهات الأرض المسكونة، التي يمكن فيها ميلاد الحياة وتطورها.

أما فكرة التعمير والاستصلاح فهي مرتبطة بالإنسان مشيرة إلى مكانٍ يمكن الإقامة فيه أو مؤهلاً لأن يكون عامراً إذا كان للنباتات فهو مستصلح أو قابل للاستصلاح.

واستعمل ابن خلدون لفظ «عمران» في ثلاث

(١) نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، ط ٤، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) سورة الروم/٩.

معان، احدهما عام، والاخرين خاصين:

المعنى العام: ويعني به «الحضارة» اي التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش^(١) أما المعنيين الخاصين فنجدهما عندما يتحدث عن نوعين من الحياة بربطها بما ينتج عن كل واحدة منها، وهما «عمران بدوي»، و«عمران حضري».

بينما نجد الامام (عليه السلام) يصنف الناس وبالتالي محيطهم الاجتماعي الى ثلاث اقسام، يقول: «الناس ثلاثة: فعالم رباني.. ومتعلم على سبيل نجاة.. وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لا يستضيئون بنور العلم؛ فيهدوا، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق؛ فينجو»^(٢)، ومن المعلوم ان العلم والتعلم

(١) المقدمة، ص ١٧.

(٢) نهج البلاغة: ص ٨٠٨، وحلية الأولياء لأبي نعيم، رقم الحديث:

سمة ملازمة للحضارة.

والملاحظ مع بدايات القرن العشرين، واتساع حركة الاستشراق في الدول العربية والاسلامية انتقل لفظ الحضارة (civilization) الى المعجم العربي، وقد حدث اضطراب واضح في المفاهيم لعدم وضوح تعريفات ألفاظ «ثقافة» و«حضارة» و«مدنية»، خاصة مع وجود المفاهيم الثلاثة في اللغة العربية، على الرغم من عدم وجود سوى مفهومين في اللغة الانكليزية، ما أدى الى انقسام اتجاهات ترجمة المصطلح الى اتجاهين:

أحدهما: يرى انه مرادف للمدنية.

الآخر: يرى انه اقرب للحضارة، ويعد الاكثر شيوعا في الكتابات العربية.

ويعرف مالك بن نبي مفهوم الحضارة تعريفا فيه شيء من الحركية، يتحدد في ضرورة «توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح

لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة الى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه»^(١)

وفي الغالب يترجم لفظ عمران في اللُّغتين الإنجليزية والفرنسية بكلمة (حضارة civilisation) ان تحليل مختلف دلالات لفظ عمران، يسمح لنا بالعودة إلى الوقوف على إختيار ترجمة بعينها لضبط المصطلح وتدقيق المعنى. أحد تلك الألفاظ التي استعملت لجعل «عمران» بمعنى مجتمع، كما فعل الباحث ناصيف نصّار، الذي اعتبر أن العلم الخلدوني، كعلم اجتماع بحق قبل وجود علم الاجتماع الحديث.

في حين يميلنا لفظ (Sociologie) الحديث

(١) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، دار الفكر، ط ٥، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٥٠.

إلى اللفظ العربي اجتماع مشتق من الجذر (ج. م. ع.)
(ضمَّ بعضه إلى بعض، وضع معاً) ومنها علم
الاجتماع (Sociologie). ويبدو ان هناك وحدة
هوية بين لفظي «اجتماع» و«عمران».

ولفهم المعنى الفلسفي لكلمة عمران لا بد من
الرجوع إلى فكرة العُمَر: لنفس الجذر ع-م-ر التي
اشتق منه الفعل عَمَّرَ، بمعنى «العيش طويلاً»،
والإسم عمر الذي يعني حياة أو فترة الحياة.

ان وضع السياسة في قلب «علم العمران»،
والتعبير عن ذلك بعبارات أرسطية كما فعل ابن
خلدون في مناسبات عديدة يحتاج الى اعادة نظر ونقد،
يقول: «الدولة والملك للعمران، بمثابة الصورة
للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها»^(١)،
ما يقصده ابن خلدون هنا بالمادة هو العناصر التي
تحيا عن طريق السياسة: «فالدولة دون العمران لا

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٥٠-١٥١.

تتصور، والعمران دون الدولة والمملك متعذر^(١)

كما أن ربط - ابن خلدون بوصفه منظرا للعلم العمران البشري في القرن الثامن الهجري - من عدم امكان تصور الدولة فكرةً ووجوداً بدون عصبية. وعدها «الامتداد المكاني والزمني لحكم عصبية ما»^(٢)، وما انتهى له محمد عابد الجابري بارتباط عُمر الدولة، أي امتدادها في المكان وديمومتها في الزمان، بالعصبية أو العصبيات، وهو ما يفيد ارتهان «العمران» وعمارة الأرض بهذه القوة التي أخذت في المتن الخلدوني اسم «العصبية» وما يدخل في معناها^(٣)، نرى ان هذا الربط اقرب لمنطق التغلب والتصارع منه الى روح الاجتماع والتنظيم الذي تسعى الدول المعاصرة لتحقيقه بغية انتعاش وتطور

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ٣٠. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة،

مركز الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٤ من ص ٢١٣.

دولها وظهورها كقوى عظمى وهو ما يسمى
ب(دولة الحقوق والمؤسسات) التي تجعل الحاكم او
رئيس الدولة من ضمن المنظومة المجتمعية.

ولقد حاول محمد عابد الجابري تقديم نظرة
تبريرية جديدة لمفهوم العصبية وري: ان مدلول
العصبية عند ابن خلدون يختلف كثيرا عن مدلولها
في علم الاجتماع الحديث والتي تعني (شبكة من
علاقات اجتماعية تنظم بين الأفراد والجماعات
والقبائل) بل تعني عنده - أي عند ابن خلدون -
وسيلة او اداة تستعملها القبيلة للدفاع عن نفسها
وعن مصالحها، وهي تشبه دور الاسوار أو الجيوش
بالنسبة لحماية المدن^(١).

ويبدو لي ان موضوع العصبية مع وضوح جوانبه
السلبية الا انه يصلح مع مجتمع البداوة والقبيلة،
وارتباطه الوثيق بالبعد الاقتصادي للمجتمعات

(١) المصدر نفسه، ١٦٠.

البدائية او لنقل غير الحضارية.

ولا نبالغ اذا ما قلنا ان نهج البلاغة تضمن مبادئ تنظم علاقة الحاكم مع رعيته، وهذا المبدأ هو الاصلح حضارياً، يقول الامام علي: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا آدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَاهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَبَيَّسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجُورِ، وَكَثُرَ الْأَدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ

السَّنَنِ، فَعَمِلَ بِأَهْوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ
عَلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عَطْلٍ،
وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهَنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارِ، وَتَعَزُّ
الْأَشْرَارِ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّهِ عِنْدَ الْعِبَادِ»^(١).

ويميل الباحث الى ان مسائل علم العمران
تتقاسمها علوم أخرى من زوايا متقاربة، وهو ما
سمّاه ابن خلدون «الجريان العرضي» الذي به يمكن
فهم الجانب الوظيفي للقضايا، وهي المجالات التي
يهتم بها علم العمران^(٢).

ولقد تجاهل عدد من الباحثين أهمية التركيب
الإبداعي الذي دَعَمَ ابن خلدون به أصوليته، وقد
نتج عن هذا التجاهل ثلاثة اتجاهات^(٣):

(١) نهج البلاغة، ص ٥٢٨

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٨٤.

(٣) قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني* تأليف: صالح طاهر
مشوش، موقع المعهد العالمي للفكر الاسلامي.

الأول: ينكر العلاقة بين علم العمران والعلوم الشرعية.

والثاني: يقر بوجود هذه العلاقة، ولكنه يقلل من أهميتها.

والثالث: يتمثل في التأكيد على أن للمجتمع والتاريخ والعمران قوانين موضوعية يجب الرجوع إليها للحصول على معرفة علمية موضوعية حول حركته وأحواله المتغيرة.

والحقيقة أن الغرض من تسليط الضوء على الفهم الخلدوني لعلم العمران هي من أجل ذكر العلاقة بين ما اكتشفه ابن خلدون من أثر الطبائع والأحوال وفهم الاجتماع الإنساني وما سبق إليه الامام علي في نهج البلاغة وتحويل هذه المؤثرات والمفاهيم إلى آليات عمل ضمها عهده للاشتر، ومشاريع بناء، وعمارة للأرض من اجل المساهمة في صياغة فعل إنساني يتجاوز انحطاط الواقع

وغموض المستقبل.

ولذلك لا بد من ربط تأصيل العمران بمنهج معرفي، وقواعد علمية من شأنها مواكبة المعطيات الحضارية لغرض خدمة المجتمع.

و(فقه العمران) هو من أنواع الفقه الغائب لعقود من الزمن، اندثرت كل محاولات التنظير والترشيد لفقه يحمل المسلم إلى عمارة الأرض وبنائها، وتأسيس نهضة مدنية لمجتمعاتها. وللأسف إن الغفلة عن هذا الفقه ليس في بيانه والتعريف به فحسب؛ بل تجاوز إلى إلغائه وإنكاره أحياناً من فقه الشريعة، واعتباره من مشاغل الدنيا الفانية على حساب الآخرة الباقية^(١)!

يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا

(١) مسفر القحطاني، الوعي الحضاري، الشبكة العربية للأبحاث،

أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾.

المستويات البنيوية للعمران:

العمران بصفة عامة يتحدد بثلاث مستويات

اساسية، هي:

المستوى الاقتصادي: ويتجلى في طرق كسب العيش، والعمل والحصول على المال، وكيفية الحفاظ عليه وعدم اهداره، فقد روي عن الإمام علي (عليه السلام): «قِوَامُ الْعَيْشِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، وَمِلَاكُهُ حُسْنُ التَّدْبِيرِ»^(٢). وقال ايضا: «سُوءُ التَّدْبِيرِ مِفْتَاحُ الْفَقْرِ»^(٣)، وَقَالَ (عليه السلام): «لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يَرْمُ مَعَاشَهُ وَسَاعَةٌ يُحَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمَلُ وَلَيْسَ

(١) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٨٠ / ٧.

(٣) الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٢٨٤.

لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاحِصًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ
أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»^(١)، ولقد
أكد الامام على عدالة التوزيع على مختلف فئات
المواطنين وهو ما عبر عنه بالطبقات، ولقد رد على
من طلب منه ان يميز في العطاء فقال: (لو كان المال
مالي لسوّيت بينهم فكيف والمال مال الله).

وسيرد الحديث عن موقفه (عليه السلام) من عدالة
التوزيع وربطها بال عمران بشكل مفصل في المبحث
القادم.

ومفهوم المعاش يجمع كل أشكال الأعمال
المبدولة من الفرد لتحصيل وسائل العيش.

المستوى السياسي: ويتجلى ذلك في شكل
السلطة وعدالة الحكم، ومراعاة حقوق الرعية
(المواطن) بعيدا عن دينيه او عرقه، ولا نجد ابلغ
من مقولة الإمام علي: (الناس صنفان إما أخ لك

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، ٣٩٠.

في الدين او نظير لك في الخلق).

ويربط الامام علي بين النمرور والازدهار الاقتصادي من جهة والعمران والحرية السياسية والحكم العادل من جهة اخرى، يقول (عليه السلام) «لا يكون العمران حيث يجور السلطان»^(١)، ويؤكد على قيمة الحاكم وفضيلته وملازمتها بما يقدم من نشاط عمراني، يقول: «فضيلة السلطان عمارة البلدان»^(٢)

المستوى العلمي والمعرفي:

يقول الإمام علي «قيمة كل امرئ ما يحسنه» (٦) أي ما يحسنه من العلم والمعرفة والعمل، ونجده يقول: «اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به»^(٣).

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تحف العقول، ص ١٤١.

ويعزز هذا الامر واهميته في بقاء وديمومة المجتمع وما يلحق به من تحديات، يقول (العلم سلطان من وجده صال به، ومن لم يجده صيل عليه).

وينعي الامام على أولئك الذين لا يعوا مغزى العلم والمعرفة وتحقيقها للديمومة الفردية والمجتمعية، التي تجعل الانسانية هي الهدف، فيقول: «قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً، وقد أمكنه أن يكون ملكاً، وأن يرضى لنفسه بقنية معارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة، وحياة مؤبدة»^(١).

ولا يخفى ان الربط بين العلم والمعرفة والعمران البشري هو من اهم غايات العلم والتعلم، وبه يصلح حال الفرد والمجتمع والنظام، وان فساد نسق معرفي معين يؤدي حتما الى انتهاء المجتمع الى

(١) المصدر نفسه.

حالة من الضياع، وعدم إسهامه في صنع الفعل الحضاري، وديمومته الاجتماعية.

المبحث الثاني

مرتكزات فقه العمران عند الإمام علي (عليه السلام)

ورد لفظ اشتقاق لفظ العمران والعمارة في نهج البلاغة سبع مرات، اثنان أريد بها العمران المعنوي وخمس منها المادي، وهذه الإلفاظ الخمسة وردت جميعها في عهد علي عليه السلام للأشتر.

ويعد مصطلح العمارة من أقرب المصطلحات تعبيراً عن التنمية إذ يحمل مضمون التنمية الاقتصادية والعمراية وقد يزيد عنه فهو نهوض في مختلف مجالات الحياة الإنسانية - بصفة أولية - جوانب التنمية الاقتصادية بمعناها المتعارف عليه - والذي لا يخرج عن تعظيم عمليات الإنتاج

المختلفة^(١).

ويؤكد ذلك قول الإمام (عليه السلام) لمالك الاشر
النخعي لما ولاه مصر حين اضطرب أمر أميرها
محمد بن أبي بكر: «وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ
أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ، لِإِنَّ ذَلِكَ لَا
يُذْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ
أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا
قَلِيلًا»^(٢).

إن الإمام يرى في العمارة أبعد من مجرد الزيادة
في الإنتاج أو رفع الدخل الاقتصادي للدولة، أو
مضاعفة متوسط دخل الفرد، لأنها تتطلب عدالة
في توزيع الدخل ورفع مستوى المعيشة لجميع أفراد
المجتمع، دون استثناء، سواء من كانت لديه القدرة

(١) فؤاد عبد المنعم أحمد، السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية
الاقتصادية وتطبيقاتها، ص ٥١.
(٢) نهج البلاغة، ص ٧١٢.

على الكسب، أم من يعجز عنه، إذ تقوم الدولة بضمان مستوى الكفاية لمن يحتاجها^(١).

ويعتبر عدم الإسراف والتبذير في الاستهلاك، وفي تخصيص الموارد، من مستلزمات العمارة، حيث ينبغي أن تكون عند حد الكفاية، مع مراعاة الاستمرار في عمارة الأرض. ومع اقتران الاستخلاف بالتسخير للموارد لتسهيل التكليف، واقتران التكريم بحسن الخلق، فكراً وعقلاً وإرادةً، ومن خلال هذا الاستخلاف والتكريم، فإن على الإنسان انتهاج السلوك الرشيد في تخصيص الموارد ونائها وتنميتها^(٢).

(١) د. حسن لطيف الزبيدي، الإسلام والتنمية الاقتصادية: سعة المضمون وتكامله: <http://hasnlz.com/permalink/3393>.

html

(٢) حمد إبراهيم منصور، عدالة التوزيع والتنمية الاقتصادية: رؤية إسلامية معاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٣٢٧.

ويمكن استخلاص جملة من المرتكزات لفقه
العمران عند الإمام علي (عليه السلام):

المرتكز الأول: وحدة العمران البشري والاقتصادي:

بدأ الامام علي عهده لملك الاشر بعد البسمة
بقوله: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،
مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْرَثِيُّ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَاهَ
مِصْرَ: جَبْوَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ
أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا»^(١).

هنا الامام يقدم مهمة جبوة الخراج والجهاد
واستصلاح اهل مصر قبل عمارة البلاد، وهذا
فيه بعد مرتبي، والاهم والمهم..... لكنه يعود
في الايراد الثاني للعمران ليقول: «وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي
عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ،
لِإِنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ

بَغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَمَ لَمْ يَسْتَقِمَّ
أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا»^(١).

المرتکز الثاني: تحقيق النفع العام:

يقول الامام علي (عليه السلام) «فَإِنْ شَكُوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً،
أَوْ انْقِطَاعَ شَرِبٍ أَوْ بَالَّةٍ أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا عَرَقٌ،
أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرَجُّو أَنْ
يُضْلِحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلَا يَتَّقِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ
الْمُؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ دُخْرٌ يُعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ
بِلَادِكَ، وَتَرْزِينَ وَلايَتِكَ»^(٢).

أي إذا شكوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً، يريد المضروب من
مال الخراج أو نزول علة سماوية بزرعهم أضرت
بثمراته. وكذلك انقطاع الماء عن الأرض في البلاد
التي تسقى بماء الانهار. وكذلك انقطاع الماء عن
الارض التي تسقى بالمطر. ويصل الامر الى فساد

(١) المصدر نفسه.

(٢) نهج البلاغة، ص ٧١٣.

بذور الفلاحين بالتعفن او عمها من الغرق فغلبت عليها الرطوبة حتى صار البذر فيها غمقاً او أجحفت بالعطش و أتلفت و ذهب بمادة الغذاء من الارض فلم ينبت. وهنا يؤكد الامام على ضرورة تدخل الدولة لإصلاح و عمارة ما فسد.

وهذا الامر اتضح في مقاربات الفقهاء حيث ميزوا بين المرافق العامة وبين المباحات، فالمعيار الفقهي للتمييز بين الأموال المرصدة للنفع العام (المرافق العامة) وبين المباحات الأصلية والاختصاص الناتج عليها يعد:

الأشياء أو الأموال التي تمنع أو تحول طبيعتها دون ان تتحول إلى الملكية الخاصة، تعتبر من المؤسسات العامة كالطرق وغيرها^(١)، وما تعلقت به مصلحة الناس ومنافعهم وحاجاتهم العامة كأفنية المدن والميادين العامة والاراضي المتروكة

(١) ظ: أبو يوسف، الخراج، ٩٧-٩٨.

حول القرى^(١)، والمعادن الظاهرة والباطنة تكون منافع عامة لكل أفراد الأمة على اختلاف في ذلك. وما خصص لمنفعة من المنافع العامة بناء على ما يراه الإمام والدولة يكون من المنافع المشتركة^(٢) تحقيقاً للنفع العام.

وعليه فإن الأموال المباحة: هي الأموال التي أطلقها الشارع ولم يخصصها أو يرصدها للمنافع العامة، وإنما أباح الانتفاع وأباح تملكها^(٣).

والأموال المرصدة للنفع العام هي: الأموال التي أباح الشارع الانتفاع بها واستعمالها دون إعطاء الحق بحيازتها أو وضع اليد عليها، لتغلب طابع النفع

(١) ظ: ابن قدامة، المغني: ٤٢٦/٥.

(٢) أبو عبيد: الأموال: ٣٨١، وظ: الشواني، نيل الاوطار: ٣٤٩/٥.

(٣) د. محمود المظفر، الثروة المعدنية، دار الحق، ط ٢، بيروت،

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨، ص ٨٦-٨٧.

العام عليها^(١)، ومنع الأفراد تملك هذه الأموال، بسبب تعلق حق الجماعة بها لأهميتها، ويتنفع بها الناس باعتبارهم جزءاً من الجماعة^(٢).

وثمة فارق رئيس بين المنافع المشتركة (المرافق العامة) وبين المباحات الأصلية وهو ان المباح الأصلي ناتج من عدم تدخل أي جهة في حصوله سواء كانت هذه الجهة على وجه العموم كالدولة، أو جهة خاصة كفرد من الأفراد فان المياه وجدت بشكل طبيعي دون تدخل أي شخص، وهذا غير حاصل في المؤسسات العامة كالوقف الذي هو ناتج من واقف، فما أباح الشارع الانتفاع بمنافعها فقط مؤسسة عامة، وما أباح الانتفاع بمنافعها وأعيانها مباحات أصلية.

(١) المصدر نفسه.

(٢) د. منذر عبد الحسين الفضل، الملكية ووظيفتها الاجتماعية في الشريعة الإسلامية، مجلة الحقوق، السنة السادسة، العدد الأول ١٩٨٢، ص ١١٣ الكويت.

فقد ذكر أكثر الفقهاء ان المرافق العامة لا يثبت بها اختصاص لاحد والناس كلهم فيها سواء^(٣)، فعمارة الأرض بالبناء والصناعة والزراعة والانتفاع بما في باطنها من معادن وخيرات مطلوب من الناس عامةً، ومن المسلمين خاصةً، فهو من مقتضيات الاستخلاف العام للناس في الأرض. قال الإمام الغزالي: «فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم».

وعمارة الأرض أمر دعا إليه الله تعالى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٤)

قال الطبري مؤكداً معنى العمارة في الآية: «واستعمركم فيها»، يقول: وجعلكم عمارة فيها^(٥).

(٣) ظ: الكاساني، بدائع الصنائع، ٦/١٩٢، الطوسي، ٣/٢٧٦.

(٤) سورة هود: ٦١

(٥) القرافي. الفروق ٤/٩٢

وقال البيضاوي: «واستعمركم فِيهَا» عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها^(١).

وقال الطوسي: (وقوله «واستعمركم فيها» اي جعلكم قادرين على عمارة الارض، ومكنكم من عمارتها والحاجة إلى سكنها. والاستعمار جعل القادر يعمر الارض كعمارة الدار)^(٢).

وعلى ما مر يكون معنى قوله: «هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها» - والكلام يفيد الحصر - أنه تعالى هو الذي أوجد على المواد الأرضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان ثمكملها بالتربية شيئاً فشيئاً و أفطره على أن يتصرف في الأرض بتحويلها إلى حال

(١) الزركشي. المشور في القواعد ٣/ ٣٥ أنظر: السيوطي. الأشباه والنظائر ٢/ ٢٥١.

(٢) ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي التبيان في تفسير القرآن، الناشر: مكتب الاعلام الاسلامي طبع على مطابع: مكتب الاعلام الاسلامي الطبعة: الاولى، ١٤٠٩ هـ، ٦/ ١٥.

ينتفع بها في حياته، ويرفع بها ما يتنبه له من الحاجة
والنقيصة أي إنكم لا تفتقرون في وجودكم وبقائكم
إلا إليه تعالى و تقدس.

وقال مجاهد معنى «استعمركم فيها» أي اعمركم
بأن جعلها لكم طول اعماركم، وفي الآية دلالة على
فساد قول من حرم المكاسب، لانه تعالى امتن على
خلقه بأن مكنهم من عمارة الارض فلو كان ذلك
محرمًا لم يكن لذلك وجه، والعبادة لا تستحق إلا
بالنعم المخصوصة التي هي أصول النعم فلذلك
لا يستحق بعضنا على بعض العبادة ابتداء، وان
استحق الشكر، ولذلك لا تحسن العبادة ابتداء، كما
لا يحسن الشكر إلا في مقابلة النعم^(١).

وقال العلامة الطباطبائي: (العمارة ضد الخراب
يقال: عمر أرضه يعمرها عمارة قال: «و عمارة
المسجد الحرام» يقال: عمرته فعمر فهو معمور قال:

(١) الطوسي، التبيان: ٦ / ١٥ ..

«و عمروها أكثر مما عمروها» «و البيت المعمور» و
 أعمرته الأرض و استعمرتة إذا فوضت إليه العمارة
 قال: «و استعمركم فيها» فالعمارة تحويل الأرض إلى
 حال تصلح بها أن يتنفع من فوائدها المترتبة منها
 كعمارة الدار للسكنى و المسجد للعبادة و الزرع
 للحرث و الحديقة لاجتناء فاكهتها و التنزه فيها و
 الاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان
 أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن يتنفع بما يطلب
 من فوائدها^(١).

والاستعمار عند كثير من المفسرين هو الإعمار،
 أي جعلكم عامرينها، فالسّين والتاء للمبالغة كالتي
 في استبقى واستفاق. ومعنى الإعمار أنهم جعلوا
 الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأن ذلك
 يُعدّ تعميراً للأرض حتى سُمّي الحرث عمارة؛ لأنّ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣١٠.

المقصود منه عمّر الأرض^(١).

فمقصود هذه الآيات وغيرها واضح الدلالة في بيان مقصود العمارة من خلق الإنسان، وأنه واجب على مجموع الخليقة في القيام به، وقد نص على حكم الوجوب الإمام الجصاص في قوله: «(واستعمركم فيها) يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»^(٢).

المرتكز الثالث: مرتكز الاستخلاف والتسخير:

خلق الله الكون من اجل الإنسان وجعله مستخلفاً له في الأرض وسخر له كل شيء، ويمكن بيان الرؤية القرآنية للاستخلاف والتسخير من خلال الآتي:

(١) ظ: الماوردي: النكت والعيون ١/ ٢٥٢. البغوي: معالم التنزيل

١٨٩/٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣/ ١٨٦.

(٢) الجصاص، احكام القران: ٣/ ٣٧٨

أولاً - الاستخلاف:

عقيدة الاستخلاف تقدر ان كل شيء في الوجود انما هو ملك لله تعالى خالقه وخالق السموات والأرض وما بينهما، وان الإنسان فيما لديه من مال انما هو حائز لوديعة أودعها الله بين يديه، فالله وحده الذي له ملك السماوات والأرض، والإنسان هو خليفة الله في الأرض امره خالقه بالانتفاع بهذا المال في صورتيه، ومكنه من هذا الانتفاع منسجماً مع مصلحة المجتمع الذي يعيش فيه، ومصلحة الإنسانية بوجه عام^(١).

فالأفراد وفقاً لمبدأ الاستخلاف في الأرض قد جعل الله لهم سلطاناً مباشراً على ما فيها من الخيرات والطيبات ومكّن لهم الانتفاع منها بما اعطاهم ووهبهم من القوى العقلية والجسمية، وبناءً على

(١) الشيخ يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، دار التعارف، ط ١، ١٩٩٣م، بيروت، ص ١٤٥.

هذا الاستخلاف العام فان الأصل اشتراك البشر جميعاً في الانتفاع مما أوجد الله في الأرض من خيرات وطيبات^(١).

إن الله تعالى أوجب على الإنسان كثرة من ثمرات النيابة الإلهية له باستخلاف وإمكانية الانتفاع بالمخلوقات ان يعمر الأرض ويستثمر الموارد، وقد غرست الآيات القرآنية الكريمة عقيدة الاستخلاف، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٢)، أي أمركم بعمارته^(٣).

وعقيدة الاستخلاف تجعل المسلم يحس دائماً (ان الله خالق هاذ الكون ومالكه الاصيلي، والمال

(١) فقه البيئة، شبكة المعلومات العالمية (الانترنت).

(٢) سورة هود: ٦١.

(٣) ظ: ابن عربي، احكام القرآن: ٣/١٠٥٩، الرازي، التفسير الكبير، ١٧/١٨، الزمخشري الكشاف، ٢/٢٧٨ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٥٦/٩، الجصاص، احكام القرآن: ٣/٢٣، الطباطبائي، الميزان: ٣١٠/١٠.

الذي في ايدي البشر هو مال الله وهم فيه خلفاء لا
اصلاء) (١).

قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا
جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ
مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (٣).

فقد استخلف الله الإنسان في الكون ليدير
موارده ويعمره ويظهر أسرار الله وقدرته في خلقه
وهي مهمة ارادت الملائكة ان تكون لها، وارادها
الله للانسان تكريماً له: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي
جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ
لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤)، وقد ذكر ان

(١) السيد محمد تقي الشيرازي، الاقتصاد، ص ٣٧.

(٢) سورة الحديد: ٧.

(٣) سورة النور: ٣٣.

(٤) سورة البقرة: ٣٠.

المراد من الخليفة المعنى المجازي، قال الطاهر بن عاشور: (المراد من الخليفة المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملاً يريد المستخلف مثل الوكيل والوصي أي جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة، لان الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي اودعه في الإنسان وهو السلطة على موجودات الأرض؛ ولان الله لم يترك عملاً كان يعمله فوكله إلى الإنسان بل التدبير الاعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما اودع الله في خلقه ان يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان)^(١)

ومن هنا فان الخلافة هي تكليف بمهمة الانتفاع بموجودات الكون يكون الإنسان فيها سيداً في الكون لا سيداً للكون، فسيد الكون

(١) التحرير والتنوير: ١/٣٩٨.

وحاكمه ومالك امره هو الله سبحانه وتعالى، ولان الإنسان هو احد مخلوقاته قد تميز بالعقل فقد كرمه الله وانعم عليه نعمة الاستخلاف تمييزاً له عن غيره من المخلوقات^(١). قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(٢).

وقد اثارت مسألة الاستخلاف قضية مهمة تتعلق بسلطنة الإنسان الموارد الطبيعية هل هو نحو ملكية الرقبة ام حق اختصاص بالانتفاع أي ملكية انتفاع - وقد رجح احد الباحثين حق الاختصاص بالانتفاع (ملكية الانتفاع) وذلك للأسباب الآتية^(٣):

١- ان كثيراً من نصوص القرآن الكريم تضيف الملكية إلى الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا

(١) الإسلام والبيئة، ص ٣. (انترنت).

(٢) سورة الإسراء: ٧٠.

(٣) الإسلام والبيئة، ص ٢، الشبكة العنكبوتية (انترنت).

﴿مَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾^(٤)، (فإذا كان المال مال الله، وكان الناس صحيحاً عباد الله، وكانت الحياة التي يعلمون فيها ويعمرونها بمال الله وهي لله، كان من الضروري ان يكون المال - وان ربط باسم شخص معين - لجميع عباد الله يحافظ عليه الجميع ويتنفع به المجتمع)^(٥).

٢- إن وجود الإنسان في هذه الحياة مؤقت

(١) سورة الحديد: ٧.

(٢) سورة النور: ٣٣.

(٣) سورة طه: ٦.

(٤) سورة المائدة: ١٢٠.

(٥) الشيخ محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشرعية، دار الشروق،

ط ١٩، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٣٣.

واستخلافه فيها مؤقت أيضا ولذلك كان انتفاعه بمواردها مؤقت: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١)، وهذا التحديد الزمني للبقاء يترتب عليه تحديد للاستخلاف والانتفاع ومن هنا تبرز أهمية الأجيال المتعددة في الانتفاع بالموارد الطبيعية وضرورة ان يعي الإنسان هذه الحقيقة لكي يحفظ للأجيال التي بعده حقها في الانتفاع بما خلق الله في هذا الكون.

٣- ان شعور الإنسان بملكيته الدائمة للموارد يثير فيه الفساد المؤدي إلى نضوب الموارد، ولذلك كانت الآيات الكريمة واضحة في النهي عن الفساد في الأرض: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي

الأرض مُفسدين ﴿١﴾.

وفي ضوء ذلك قال احد الباحثين: «ولا نتجاوز روح التشريع الإسلامي إذا قلنا: ان القواعد والمبادئ الأساسية المنظمة لاستخلاف الإنسان في الأرض ومضمونها تنزل (حق الإنسان) على موارد الطبيعية من (حق الملكية) إلى مرتبة (حق الانتفاع) فقط، والذي تقل فيه سلطان صاحبه عن سلطان المالك وفكرة حق الانتفاع تبدو أكثر ملاءمة إذا روعيت القواعد الشرعية في أعماله، فلن يكن الانتفاع قاصراً على شخص دون آخر ومن ناحية ان المتفجع لا يجوز له إهدار أو تدمير أصل أو عين المال الذي ينتفع به، لان سلطة التصرف الشرعي في المادة لا تكون للمتفجع بل لمالك العين أو الرقبة» ﴿٢﴾.

(١) سورة الأعراف: ٧٤.

(٢) احمد سلامة، حماية البيئة في الفقه الإسلامي، مجلة الاحمدية، دبي سنة ١٩٩٨، ص ٢٩٥، عن احمد فتح الله الزيايدي،

ان فهم الواقع نافذة تساعد على تحقيق الاهداف والمبادئ العليا للتشريع، وهو أمر ضروري يلزم عنه ضرورة النظر في توافق العُرف مع الشرع أو مخالفته، وذلك لأن مصادر الوحي تتوافر فيها الأدلة والقواعد والأحكام اللازمة والشروط العلمية والمبادئ الأصولية التي تمكّن الفقيه من التمييز بين العُرف المعتبر شرعاً وغيره. وفي مجال فقه العمران يلزم التركيز على محورين، هما:

١- فطرة الإنسان.

٢- طبيعة العمران.

ومن خلاهما فإنَّ علم العمران مؤهل لتقديم خدمات معرفية لتلك الأصول^(١).

والكلام عن عقيدة الاستخلاف في حياة المسلم ينطوي على نماذج ومشاريع إصلاحية عديدة، يحاول

(١) قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني تأليف: صالح طاهر مشوش، موقع المعهد العالمي للفكر الاسلامي.

أصحابها إيجاد طريقة لتفعيلها في حياة المسلم، فهو ليس معزولاً عن علم العمران، وأهميته لا تقل عن العمران، بدلالة الإرادة الإلهية في خلق الإنسان.

ولذلك يمكن الاستعانة بمفاهيم أخرى لتوضيح عقيدة الاستخلاف، ينبني بعضها على نظام كلي، تشكل مادته ثلاث قضايا أساسية، هي:

- مرجعية النص الوحياني.

- الفطرة السليمة التي هي عماد العمران البشري.

- الاستناد لمبدأ التسخير، ولاهية نسلط الضوء عليه بشيء من التفصيل.

ثانياً - التسخير:

تشير آيات كثيرة في القرآن الكريم إلى ان الكون قد سخره الله سبحانه للإنسان أي طوعه وذلله ليستطيع الانتفاع به والتصرف فيه، ويمكن ذكر بعض الآيات الكريمة في ذلك:

- قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(١).

- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

إلى غيرها من الآيات التي تذكر ما سخره الله للإنسان في الكون ليتنفع به دون تملكه.

ان النظرة إلى آيات التسخير الواردة في القرآن

(١) سورة الجاثية: ١٣.

(٢) سورة النحل: ١٤.

(٣) سورة الحج: ٦٥.

الكريم يمكن ان تبين امور عدة منها:

١- ان هذا التسخير المذكور في آيات القرآن الكريم محدود بإرادة الله ولا يستطيع الإنسان مهما أوتي من قوة مادية أو علمية ان يحصر الاستفادة منه بفئة معينة أو افراد محددين، ولذلك فهو لانتفاع الجميع يمكن ان يحصل حق الاختصاص بالانتفاع به عند التزاحم والاسبقية.

٢- إذا كان التسخير الالهي لمظاهر الكون للإنسان نعمة فهي إذاً حق من حقوقه التي منحه الله اياها يستطيع من خلاله الانتفاع بكل ما فيه صلاح لبناء المجتمع.

٣- ان جميع موارد الحياة خلقها الله لنا، وبالتالي فان الانتفاع بها يعتبر في الإسلام حقاً للجميع، وينبغي ان لا ينظر إليها انها ملكية منحصرة في جيل معين دون غيره بل هي ملكية مشتركة لجميع الناس، ينتفع بها كل جيل بحسب حاجته دون

اخلال بمصالح الاجيال القادمة^(١).

ومن هنا نعلم أن العمارة الحقيقية إنما تبدأ من فكر الإنسان وتنمية وعيه بقيم الحقوق والواجبات العمرانية، ولو فقدت هذه الأحكام والمبادئ لأصبحت مهمة العمران من مفاسد الأرض وجلب الظلم وانتهاك حقوق الأفراد، وهذا ما قصده ابن خلدون في قوله: «إن الحضارة مفسدة للعمران»^(٢)، من حيث وصولها إلى مرحلة الترف المؤدي إلى فساد الأخلاق، وتمزق المجتمع، وذهاب ثروته نحو طبقة متفردة تنتهي بها الدولة^(٣). ولذلك قال الامام في بداية عهده: «وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا»^(٤).

(١) ظ: د. احمد عبد الرحيم وعوض، ود. احمد عبده، قضايا البيئية من منظور اسلامي، مركز الكتاب للنشر، ط ١، القاهرة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م، ص ٧٢-٧٦.

(٢) ابن خلدون المقدمة ٣/ ٨٧٧

(٣) الجابري أفكر ابن خلدون. العصبية والملك ص ٢٣٣ وما بعدها

(٤) نهج البلاغة، ص ٦٩٥.

ومما تقدم يمكن ان ننتهي الى القول: ان التأسيس النظري لفقهِ العمران عند الامام علي، مرتبط بعدد من المفاهيم والقواعد الكلية، تشكل المنطلق للفعل العمراني، من دونها لا تتحقق غاية العمران.

المبحث الثالث

إجراءات فقه العمران عند الامام علي (عليه السلام)

اتضح في المباحث السابقة المعالم النظرية لفقه العمران عند الامام علي، وفي هذا المبحث نسلط الضوء على بعض الامور العملية التي اقرها الامام في سبيل عمران الدولة ومواطنيها واقاليمةها. ولعل ما قام الامام علي بتوزيع ثروات الدولة توزيعا عادلا على جميع افراد الامة، من الاجرائيات المهمة في تحقيق العمران:

أولا - إجراءات أولية.

١ - المساواة في التوزيع والعطاء:

بدء الامام علي عليه السلام عهده في الخلافة بتعزيز المساواة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية

التي من شأنها تحقيق العمران، يقول: «ولا يتخلفنَّ أحدٌ منكم عربيٍّ ولا عجميٍّ، كان من أهل العطاء أم لم يكن، إلا حضر..»^(١).

وفي خطبة له عليه السلام يؤكد مبدأ المساواة والعدالة، يقول: «فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحد فيه إثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقرنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرضَ به فليتولَّ كيف شاء»^(٢).

فليس لاحد على أحد فضل أو امتياز، وانما الجميع على حد سواء، فلا فضل للمهاجرين على الانصار ولا لأسرة النبي (ﷺ) وأزواجه على غيرهم، ولا للعربي على غيره، وقد طبق الامام (عليه السلام) هذه الجهة بصورة دقيقة وشاملة فكان قد ساوى بين

(١) ابن ابي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة: ٧ / ٣٧.

(٢) المصدر نفسه: ٧ / ٤٠.

المسلمين في العطاء، ولم يميز قوما على آخرين، فقد وفدت اليه سيدة قرشية من الحجاز طالبة منه الزيادة في عطائها، وقد التقت قبل أن تصل اليه بعجوز فارسية كانت مقيمة في الكوفة فسألتهما عن عطائها فاذا به يساوي ما خصص لها، فأمسكت بها وجاءت بها اليه، وقد رفعت عقيرتها قائلة: «هل من العدل أن تساوي بيني وبين هذه الامة الفارسية ؟ ! !». فرمقها الامام بطرفه، وتناول قبضة من التراب، وجعل ينظر اليه ويقبله بيده وهو يقول: «لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعض، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

وقد سببت هذه الاجراءات العمرانية في اثاره بعض النفعيين، فأعلنوا سخطهم وعداوتهم على

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

الامام، ولم يقف الامر عند هذه الحد بل وصل الامر الى مطالبة بعض اصحابه بالعدول عن اجراءاته، حتى ان الامام اجابهم: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجُورِ فَيَمَنُّ وُلَيْتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ لَهُمْ. أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ»^(١).

ويرى المدائني أن من اهم الاسباب التي أدت إلى تخاذل الكثير عن الامام اتباعه لمبدأ المساواة حيث كان لا يفضل شريفا على مشروف - في العطاء- ولا عربيا على عجمي^(٢).

(١) نهج البلاغة، ص ٢٨٦.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ / ١٨٠.

٢ - ربط الانفاق بالعمران:

تطوير اقتصاد الدولة، وتحقيق العمران من اهم اهداف الانفاق، وقد أكد الامام في عهده للأشتر على عمران الارض قبل جباية الخراج يقول: «وليكن نظرك في عمارة الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة اخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره الا قليلا...»^(١). ولذلك دعا الامام ايضا الى ترشيد الانفاق.

وهذه اهم المبادئ الاقتصادية التي تشجع على الاستثمار وتحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية لأفراد المجتمع، والتخفيف من مستوى الفقر.

ولذلك كانت للأمام وصايا واوامر للولادة تعزز روح التعاون وتحقيق مبدا الضمان الاجتماعي وفي هذا المجال جاء في عهده لمالك الأشتر «ثم

(١) المصدر نفسه.

الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك من غلات صوافي الإسلام في كل بلد فإن للأقصى مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر»^(١).

ويختلف معنى الطبقة في زمن الامام (عليه السلام) عن المعاني المتغيرة، للطبقات المتطورة والمستحدثة، في العصور المختلفة، وبخاصة في العصر الراهن، ولذلك يقول في عهده لملك الاشر: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، مِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْأَنْصَافِ وَالرَّفِيقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ

أَهْلِ الدِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ
الصَّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ
وَالْمُسْكِنَةِ، وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَيَّ
حَدَّهُ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَهْدًا مِنْهُ
عِنْدَنَا مُحْفُوظًا»^(١).

أي ان الدلالة الاقتصادية، والدينية والعسكرية،
متداخلة تبعا لتداخل الفئات المذكورة في المجرى
العام لحركة العمران الخاصة بالمجتمع والدولة في
الاسلام، الا ان الامام علي يركز على (الوحدة) و
(التنوع) في التركيبة الاجتماعية للرعية، فهو يرفض
عمومية التحدث عن وحدة الرعية، مقدما رؤية
واقعية عن مكان كل طبقة، وفعاليتها الاجتماعية
والاقتصادية و(العسكرية)^(٢).

٣- الفصل بين الاموال العامة وبين أموال الأفراد

(١) نهج البلاغة، ص ٧٠٤.

(٢) ظ: عزيز السيد جاسم، علي سلطة الحق، ص ٤١٩.

من قبل رجال الدولة والمتصددين للشأن العام:

حرص الامام على نهى ولاته في الامصار على
عدم الاستثثار بأي شيء من الأموال العامة، فقد
تخرج الامام فيها كأشد ما يكون التخرج.

وبالتأكيد ان يحصل مثل هذا الامر من قبل اهل
الطمع، الذين لا يناسبهم زهد الامام (عليه السلام) وأقواله
حيث يقول: «ولكن هيهات أن يغلبني هواي»
ويقودني جشعي إلى تخبير الأطمعة - ولعل بالحجاز
أو باليامة من لا طمع له في القرصاً ولا عهد له
بالشعب - أو أبيت مبطاناً وحوالي بطون غرثى وأكباد
حرى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة*** وحوالك أكباد

تحن الى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين
ولا اشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في
جشوبة العيش! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات

كالهيممة المربوطة أهمها علفها أو المرسله شغلها
تقممها تكثرش من أعلافها وتلهو عما يراد بها أو
أترك سدى..»^(١).

وتذكر بعض المصادر ان الامام اجاب عمر بن
الخطاب عندما سأل عما يصلح لي من بيت المال
فقال له الامام علي: «غداء، وعشاء فأخذ عمر
بذلك»^(٢).

وكان يقول الامام (عليه السلام) لأصحابه في هذا الشأن
إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «لا يحل للخليفة
من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله»^(٣).

ثانيا - بيت المال والخراج والعمران:

يعد «بيت المال» مجمع الثروة الاجتماعية للدولة

(١) المصدر نفسه: ٢٨٧/١٦.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص ٣٥.

(٣) مسند أحمد في المسند، ٧٨/١. وظ: ابن كثير، البداية
والنهاية: ٢/٨، مكتبة المعارف بيروت.

الاسلامية، ومصدر تنظيمها وتوزيعها، ويحمل بيت المال معنيين، حسب نوع السياسة العامة لقيادة الدولة^(١):

الأول: قد يكون بيت المال الحكومي الذي يكرس إرادة قيادة سلطة الدولة ومصالح الفئات الاجتماعية المرتبطة والمالية لها، وهو بهذه المعنى ذو دلالة طبقية، ممثلة لمصالح القوى السياسية والطبقة المتنفذة ومنافية للمعنى الذي حدده الاسلام لبيت المال.

الثاني: وهو المصداق الذي حدده التشريع الاسلامي، ويكون ماثلا في تكريس بيت المال لخدمة المسلمين ومن يعيش في كنف الدولة عموما.

وتتكون خزائن بيت المال بشكل اساس من «الخراج» و«الجزية» وبقية الموارد مثل الزكاة وغيرها، ويعد الخراج الدعامة الاساسية لإقتصاد

(١) ظ: عزيز السيد جاسم، علي سلطة الحق، ص ٤٢٢.

الدولة في الاسلام في ذلك الوقت؛ لان اغلب مراتب الجند -مثلا- من موارد الخراج: «فإذا ادت الرعية إلى الوالي حقه، وادى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على اذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئت مطامع الاعداء»^(١).

ومن الاخطاء الفادحة التي تمثل انحرافا خطيرا عن المضمون العمراني الاجتماعي لبيت المال، توجه أجهزة الدولة وجباتها الى الافراط في الجباية، على حساب الاهتمام بعمران الارض، أي أن استجلاب الخراج يصبح سياسة النظام وهمّه الكبير، دونما أي اكتراث بالعلاقة الاقتصادية والسياسية بين الخراج وأحوال الناس^(٢).

وكان منهج الامام علي في العمران «وحدة

(١) نهج البلاغة، ص ٤١٩.

(٢) ظ: عزيز السيد جاسم، علي سلطة الحق، ص ٤٢٣.

العناية بالخراج والجزية بالانطلاق من الاهتمام
بعمران الارض»، فهو يقول في عهده للأشتر
«وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي
اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ»،^(١) غير ان عمران الارض -
نفسه - مرتبط أصلاً بمكانة الانسان وقيمته^(٢)،
لذلك يقول: «وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةِ أُخْرَبَ
الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا»^(٣).

وتظهر وحدة الافق بين الانسان وعمران
الارض والخراج وبناء الدولة في ذلك التأصيل
المنهجي لوحدة العلاقة الاقتصادية بمضمونها
العمراني الانساني بين تلك الاطراف في قوله عليه
السلام: «وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الْخُرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي
صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ

(١) نهج البلاغة، ص ٧١٢.

(٢) ظ: عزيز السيد جاسم، علي سلطة الحق، ص ٤٢٣.

(٣) نهج البلاغة، ص ٧١٢.

لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى
الْخُرَاجِ وَأَهْلِهِ»^(١).

ولكي يؤدي الخراج فاعليته المادية والمعنوية
حرص الامام على وضع مجموعة من الاسس
التشريعية ليحقق الخراج اثره العمراني:

١ - محاسبة العمال على سياستهم عند المخالفة.
حرص الامام علي بنهجه العادل على محاسبة الولاية
والعمال الذين يمثلون سياسة الدولة، ومتابعة
أعمالهم، ذلك ان الولاية والعمال هم وجه السلطة،
وصورتها المعبرة عنها، في الامصار والمناطق البعيدة
عن مركز الخلافة، فالناس يرون في الولاية والعمال
عليهم صورة الخليفة ووجه الدولة، والممثل لنهجها
وسياستها^(٢)، فاذا انهارت ثقة الناس بهؤلاء انهارت
الدولة.

(١) المصدر نفسه.

(٢) ظ: عزيز السيد جاسم، علي سلطة الحق، ص ٤٣٣.

ومن كتاب له (ﷺ) إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامله على أردشير خرة: يلزمه بإعادة المبلغ الذي أخذه من بيت المال، والذي أنقذ فيه من الاسر خمسمائة رجل معظمهم من بني بكر بن وائل قوم مصقلة، قال فيه: «بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَأَغْضَبْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فِيءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخِيُولُهُمْ، وَأَرِيقتَ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَمَكَ مِنْ أَغْرَابِ قَوْمِكَ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحُبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخِفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»^(١).

٢- تحصيل الخراج بالحق، فمن كتاب له عليه السلام إلى قيس بن سعد بن عبادة، وهو عامله

(١) نهج البلاغة، ص ٦٧٣، وذكره البلاذري في انساب الاشراف، ص ١٦٠.

على آذربايجان: (اما بعد فاقبل على خراجك بالحق، وأحسن إلى جندك بالإنصاف، وعلم من قبلك مما علمك الله) (١).

وبلغ من احتياط الإمام (عليه السلام) لتحقيق العدل انه كان يوصي عمال صدقاته بالتأدب مع الناس والتزام اللطف بهم، وجاوز ذلك إلى إلزامهم بالرفق بحيواناتهم المستحقة لفريضة الصدقات عليها «ولا تنفرن بهيمة، ولا تفر عنها، ولا تسوءن صاحبها فيها» ونصح بالرفق بما جبي من حيوانات الصدقة والعناية بها، لأنها ملك لبيت مال المسلمين والمستحقين لها، «ولا توكل بها إلا ناصحا شفيقا وأمينا حفيظا، غير معنف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب» (٢).

٣- اتباع سياسة التحذير لمن يعطل او يؤخر

(١) تاريخ البيهقي: ج ٢ ص ١٧٨

(٢) نهج البلاغة، ص ٦١١.

الخراج من الولاية، وسياسة التشجيع والتحفيز لمن يجلبه في وقته، وهذا جانب لتحقيق العمران في اقاليم الدولة، فمن كتاب له (رضي الله عنه) الى يزيد بن قيس الارجبي^(١): «أما بعد فإنك أبطأت بحمل خراجك، وما أدري ما الذي حملك على ذلك، غير أنني أوصيك بتقوى الله، وأحذرك أن تحبط أجرك وتبطل جهادك بخيانة المسلمين، فاتق الله ونزه نفسك عن الحرام،

(١) قال الشيخ الطوسي (تحت الرقم السادس من باب الياء من اصحاب أمير المؤمنين (ع) من رجاله ص ٦٢ - يزيد بن قيس الارجبي كان عامله على الري وهمدان واصبهان. وفي شرح المختار - ٢٥) من خطب نهج البلاغة من شرح ابن أبي الحديد: ج ٢ ص ٤ س ١، عكسا: انه (ع) شكاقومه ممن كاتب معاوية من اهل الجند وصنعاء) إليه، وأراد (ع) أن يبعثه للتنكيل بهم. فراجع القضية فانها دالة على جلالته، لا سيما باض افة ما قيل من أنه أخو سعيد بن قيس الهمداني المتفاني في ولاء أمير المؤمنين (ع) هو خاصة، وقومه عامة. وفي قصة اعتزال الخوارج عليا (أمير المؤمنين عليه السلام) من تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٤٧، من حوادث سنة ٣٧، وكذلك في كامل ابن الاثير: ج ٣ ص ١٦٦

ولا تجعل لي عليك سييلا، فلا أجد بدا من الايقاع بك، واعزز المسلمين ولا تظلم المعاهدين، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا أَنتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١) «(٢)».

ومن كتاب له (عليه السلام) إلى سعد بن مسعود الثقفي - عم المختار - عامله على المدائن: «أما بعد فإنك قد أديت خراجك وأطعت ربك وأرضيت إمامك فعل البر التقي النجيب، فغفر الله ذنبك وتقبل سعيك وحسن مآبك»^(٣).

وتأكيدا للردع والنهي عن الجور والفساد في هذا الشأن - وهو الهاجس الذي يؤرق الإمام (عليه السلام) ويشغل باله لما شهدته في زمان العمال قبله - حذر

(١) القصص: ٢٨

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه.

الإمام عمال الخراج، في كتاب وجهه إليهم، من سوء التصرف والتعسف في معاملة الناس واضطرابهم إياهم إلى ما لا يجوز ولا يصح «ولا تبعن الناس في الخراج - أي بسببه - كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدا، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم»^(١).

٤- الحرص على قوة وهيبة الدولة أمام الرعية، مع الاحتفاظ بالرحمة في باطن العمال. وعدم التعدي على حاجات الناس الأساسية، والرحمة بهم والعفو عنهم. ومما يدل على هذا المنهج العمراني خطابه عليه السلام لاحد قال: «اسْتَعْمَلَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عُكْبَرَاءِ أَفْقَالٍ لِي وَأَهْلِ الْأَرْضِ مَعِيَ يَسْمَعُونَ» انظُرْ أَنْ تَسْتَوْفِيَ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْخُرَاجِ وَإِيَّاكَ أَنْ تُرَخِّصَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَرَوْا مِنْكَ ضَعْفًا، ثُمَّ قَالَ: رُحْ إِلَيَّ عِنْدَ الظُّهْرِ، فَرَحْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ

(١) نهج البلاغة، ص ٦٩٣.

الظُّهْرَ أَفْقَالَ لِي: إِنَّمَا أَوْصَيْتُكَ بِالَّذِي أَوْصَيْتُكَ بِهِ قُدَّامَ أَهْلِ عَمَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ خِدَعٌ، انظُرْ إِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِمْ فَلَا تَبِعَنَّ هُمْ كَسَوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا رِزْقًا يَأْكُلُونَهُ، وَلَا دَابَّةً يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا أَوْ لَا تُضْرِبَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ سَوْطًا وَاحِدًا فِي دِرْهَمٍ، وَلَا تُقِمَّهُ عَلَى رِجْلِهِ فِي طَلَبِ دِرْهَمٍ، وَلَا تَبِعْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَرَضًا فِي شَيْءٍ مِنَ الْخُرَاجِ، فَإِنَّا إِنَّمَا أُمِرْنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْهُمْ الْعَفْوَ أَفَإِنْ أَنْتَ خَالَفْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ يَأْخُذُكَ اللَّهُ بِهِ دُونِي أَوْ إِنْ بَلَغَنِي عَنْكَ خِلَافَ ذَلِكَ عَزَلْتُكَ أَقَالَ: قُلْتُ: إِذَنْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ كَمَا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ أَقَالَ: وَإِنْ رَجَعْتَ كَمَا خَرَجْتَ أَقَالَ: فَانْطَلَقْتُ فَعَمِلْتُ بِالَّذِي أَمَرَنِي بِهِ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَنْقُصْ مِنَ الْخُرَاجِ شَيْئًا»^(١).

ويستشرف الإمام علي، المصير الذي سارت إليه دولة الأمويين، من خلال نظرتها القصيرة إلى الخراج، مقترناً لديها بالاستغلال، ذلك الذي ألبَّ

(١) الخراج لأبي يوسف، ج ١ ص ١٥

عليها شعوب البلدان المفتوحة. وخلافاً لذلك، حرص علي على تكريس الشعور بالمساواة لدى هذه الشعوب، محذراً من استغلال أهل الخراج، وموصياً بالتالي أن يؤخذوا باللين والحوار والمودة.^(١) ولعل كتابه إلى عمّال الخراج، يشكل نموذجاً في هذا المجال، محدداً وظيفة الخراج وطبيعتها وصفات العامل عليه ورسالته. وقد جاء فيها: «فانصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنكم حُزَّانُ الرعية ووكلاء الأمة وسفراء الأئمة، ولا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تجسوه عن طلبته، ولا تبيعنَّ للناس في الخراج كسوة شتاءٍ ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبداً، ولا تضربنَّ أحداً سوطاً لمكانٍ درهم، ولا تمسُن مال أحد من الناس مُصَلَّ ولا مُعَاهِدٍ، إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً

(١) د. ابراهيم بيضون / «الامام علي في رؤية النهج» و«رواية التاريخ»

يُعتدى به على أهل الإسلام»^(١).

أن الامام علي «كان يؤمن بمقولة (الناس على دين ملوكهم) وليس بمقولة (كيفما تكونوا يولّ عليكم) فأشد ما كان يشغل فكر الإمام هو صلاح ذوي الشأن القائمين على أمور الناس في مجال الإدارة والقضاء والدفاع وغيرها من شؤون إدارة الدولة، انطلاقاً من إيمانه بمقولة (صلاح الرعية بصلاح الوالي) لذلك لا نجد في (العهد) كله غير تفصيلات واجب المسؤول تجاه مسؤوليه وتذكيره بإقامة حكم الله وسلطان الحق فيهم، ثم رعايتهم بأقصى ما يستطيع من ذلك»^(٢)

ثالثاً - أولوية العمران على جلب الخراج:

(١) نهج البلاغة، ص ٦٩٣.

(٢) الدكتور صاحب أبو جناح، السياسة الإدارية عند الإمام علي عليه السلام قراءة في عهد التولية لمالك الأشر: <http://arabic.balaghah.net/content>

اتبع الامام علي سياسة اقتصادية واقعية في الخراج، توازن بينه وبين الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمواطني الدولة، ليؤدي الخراج دوره العمراني.

من خلال الضبط الإداري والتفويض والصلاحيات بحسب كل حالة، فأمر بعض الولاة بطاعة صاحب بيت المال فيما يتعلق به وذلك كنوع من الاستقلال، بينما أعطى ولاة آخرين مسؤولية عامة عن الخراج كالأشتر النخعي جاء في العهد: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَشْطَرِّ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وُلِّاهُ مِصْرَ: جَبْوَةَ خَرَاجِهَا، وَجَهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا...»^(١)

وقد عمد الامام علي في بعض الحالات إلى فصل وظيفة الخراج، كذلك بيت المال، ضبطاً مالياً للدولة، وحتى لا تكون السلطات محصورة بكاملها

(١) نهج البلاغة، ص ٦١٠.

في يد الوالي الذي قد يلجأ إلى استغلال نفوذه الواسع. ولقد روى اليعقوبي أن علياً كتب إلى قرظة ابن كعب الأنصاري، يأمره بشق نهر كان قد عفا في أرضٍ لأهل الذمة، خاتماً رسالته بالقول: «فلعمري لأن يعمروا أحب إلينا من أن يخرجوا»^(١). وهكذا يأتي تشجيع الزراعة في خدمة الاستقرار، ويقترن الخراج بعمارة الأرض وإصلاحها، ولعل هذه السياسة، وإن وجدها البعض «شديدة»، لا سيما المتضرر من المساواة، حفرت بعمق أمام الإسلام لينتشر بتلك السرعة في البلاد المفتوحة^(٢).

اهتم الامام في الحفاظ على عمران الأراضي وأولويتها على أمر الخراج، وان كان الخراج مورداً رئيساً لبيت المال الذي تعتمد عليه الدولة في سد حاجاتها المالية مع الإضرار به يؤثر على حياة الافراد

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢ / ١٩٢.

(٢) د. ابراهيم بيضون / «الامام علي في رؤية النهج» و«رواية التاريخ»

وربما يؤدي إلى هلاكهم.

ولذلك يروى ان الامام (ﷺ) كان في احد الايام يمشي في سكك الكوفة، فنظر إلى رجل يستعطي الناس: فوجه الإمام السؤال إلى من حوله من الناس قائلاً: ما هذا؟ فقالوا: إنه نصراني كبر وشاخ ولم يقدر على العمل، وليس له مال يعيش به، فيكتنف الناس.. فقال الإمام - في غضب: استعملتموه على شبابه حتى إذا كبر تركتموه؟ ثم جعل الإمام (ﷺ) لذلك النصراني من بيت مال المسلمين مرتباً خاصاً ليعيش به حتى يأتيه الموت^(١).

وهذا يدل على أن الفقر كاد أن لا يرى لنفسه مجالاً في دولة الإمام حتى إذا رأى الإمام أمير المؤمنين (ﷺ) فقيراً واحداً كان يستغرب، ويعتبره ظاهرة مخالفة للعمران الذي اراده الله تعالى على هذه الارض وغير لائقة بالمجتمع الانساني.

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٦٦ ب ١٩ ح ١٩٩٩٦.

ولذلك امر مالك الاشتهر بعمران الارض اولا وليس جلب الخراج، ليخفف عن الناس ويزدهر العمران، قال الامام «وليكن نظرك في إعمار الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك يُدرَكُ بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أضرب بالبلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجوا أن يصلح به أمرهم. فإن العمران محتمل ما حملته وإنما خراب الأرض من إعواز أهلها وإنما إعوازاها أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر...»^(١).

كانت نظرة الامام علي إلى الخراج - الذي يرتبط عضويًا بالعطاء-، خصوصاً بعد توقف الغنائم إثر ركود جبهات الفتوح. وهي نظرة تؤسس لعلاقة

(١) نهج البلاغة، ص ٧١٣.

إيجابية مع شعوب البلاد المفتوحة، بما يسهم في عمرانها وتعزيز انتمائها للأمة. لذا يرى ضرورة إصلاح أمر الخراج، بما يتعدى الجباية، إلى المسألة الاقتصادية برمّتها، حيث يشكل الخراج المصدر الأساسي لها في ذلك الوقت،^(١) وهذا ما يمكن قراءته بوضوح في عهده للأشتر، فيوصيه قائلاً: «تفقد أمر الخراج بما يُصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم، صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً»^(٢).

فإذا تعرضت الأرض إلى عطش بسبب شحّة

(١) د. إبراهيم بيضون / «الامام علي في رؤية النهج» و«رواية التاريخ»

(٢) نهج البلاغة، ص ٦٢٤.

المطر أو انقطاع مياه الري أو إلى آثار الفيضان أو الآفات الزراعية لزمه التخفيف عن كاهل أهلها -عند الجباية- بما يصلح أمرهم، وليس في ذلك خسارة على بيت المال بل تشجيع لهم على معاودة الإنتاج بجد ونشاط، وإصلاح عمارة الأرض، فضلا عما فيه من إشاعة الطمأنينة في نفوس الناس تجاه أولياء الأمور، واستعدادهم للبذل والمعونة عند حدوث أزمة أو إمام ملمة. فليس من المصلحة استنزاف ما في أيدي المزارعين، لأن خراب الأرض يؤتى من إعواز أهلها الناجم عن إلحاح أهل الجباية والتحصيل، وهو ما حدّر منه الإمام ع، لأنه من مظاهر الفساد والجور وسوء التدبير^(١) لان من «طلب الخراج بغير عمارة الأرض أخرج البلاد

(١) الدكتور صاحب أبو جناح، السياسة الإدارية عند الإمام علي (عليه السلام) قراءة في عهد التولية لمالك الأشتر: <http://arabic.balaghah.net/content>

وأهلك العباد»^(١)

وبالعودة إلى المصادر التاريخية، نجد ان الإمام علياً يلتزم القاعدة التي اشار بها علي عمر بن الخطاب بالامتناع عن تقسيم الاراضي التي فتحت عنوة بين الفاتحين، وبالتالي لزوم إبقائها بيد اهلها، كي لا تؤول الى الخراب بانتقالها الى الغير^(٢).

وكذلك عرف عن الامام علي انه كان يعمل جهده على تحقيق عدالة التوزيع والحيلولة دون تكتل الاراضي والضياع بيد افراد قلائل يستأثرون بها، دون عمرانها، ولذلك بادر فور توليه الخلافة الى الامر بإرجاع القطائع التي اقطعها عثمان الى بيت المال، يقول: «ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال،

(١) نهج البلاغة، ص ٧١٣.

(٢) ظ: الحنبلي، الاستخراج، ص ٣٧، وظ: باقر شريف القرشي،

فإن الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة ومن ضاق عنه العدل فالجور عليه أضيقت»^(١).

وهي سياسة أثارت على الخليفة الأسبق قريشاً وبعض صحابتها، كما أثارت قادة الأمصار الذين استفزهم منح الخليفة عثمان قطائع لهؤلاء ولأقربائه، وهو ما يبدو أنه كان أحد حوافز القادة للثورة على الخليفة. ولذلك كان استرداد هذه «القطائع»، جزءاً من الحركة الإصلاحية التي استهدفت من جانب علي مجمل نهج الخليفة السابق، على كافة الصعيد السياسية والإدارية والاقتصادية.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

الخاتمة

بعد هذه الوقفة الفكرية مع عهد علي عليه السلام، يمكن ذكر بعض المستخلصات:

١. ورد لفظ اشتقاق لفظ العمران والعمارة في نهج البلاغة سبع مرات، اثنان اريد بها العمران المعنوي وخمس منها المادي، وهذه الالفاظ الخمسة وردت جميعها في عهده (عليه السلام) للأشتر.

٢. وربط معنى العمارة المادية بالعمارة الروحية، حيث المبدأ العام للشريعة، وتحقيق التمكين، ركن اساس في تأصيل فقه العمران عند الامام علي (عليه السلام).

٣. تضمن عهد الامام علي لمالك الاشتر تأكيداً على اولوية العمران البشري ومن ثم عمارة الأرض بالبناء و الصناعة والزراعة والانتفاع بما فيها كجزء

من مقتضيات الاستخلاف العام للناس في الأرض.

٤. لقد سبق الإمام علي في نهج البلاغة في تأصيل مفاهيم فقه العمران وحوّلها إلى إجراءات عمل ضمها عهده للأشتر، ومشاريع بناء، وعمارة للأرض من أجل المساهمة في صياغة فعل إنساني يتجاوز انحطاط الواقع وغموض المستقبل.

٥. في مجال فقه العمران يلزم التركيز على محورين، هما: فطرة الإنسان، وطبيعة العمران. ومن خالهما فإن علم العمران مؤهل لتقديم خدمات معرفية لتلك الأصول، ولذلك فإن التأسيس النظري لفقه العمران عند الإمام علي، مرتبط بعدد من المفاهيم والقواعد الكلية، تشكل المنطلق للفعل العمراني، من دونها لا تتحقق غاية العمران.

٦. تظهر وحدة الأفق بين الإنسان وعمران الأرض وبناء الدولة في ذلك التأصيل المنهجي

لوحة العلاقة الاقتصادية بمضمونها العمراني
الإنساني بين تلك الأطراف، ولكي يؤدي المنهج
فاعليته المادية والمعنوية حرص الإمام علي على
وضع مجموعة من الأسس التشريعية لتحقيق الموارد
المالية للدولة اثرها العمراني.

٧. حرص الإمام علي بنهج العادل على
محاسبة الولاة والعمال الذين يمثلون سياسة الدولة،
ومتابعة أعمالهم، ذلك ان الولاة والعمال هم وجه
السلطة، وصورتها المعبرة عنها، في الأمصار
والمناطق البعيدة عن مركز الخلافة، فالناس يرون في
الولاة والعمال عليهم صورة الخليفة ووجه الدولة،
والمثل لنهجها وسياستها، فاذا انهارت ثقة الناس
بهؤلاء انهارت الدولة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- نهج البلاغة.

١. إبراهيم بيضون، الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام، ط، ٢، ٢٠٠٩، بيروت.
٢. ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين المعتزلي (ت: ٦٥٦ هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م.
٣. ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد التونسي المالكي (ت ٨٠٨ هـ)، المقدمة، دار الكتب العلمية، ط ٨، بيروت، ٢٠٠٣ م.
٤. ابن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس،

د.ت.

٥. ابن قدامة (ت ٦٣٠هـ)، المغني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٦. ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت.

٧. أبو عبيدة القاسم بن سلام، الأموال، مكتبة الكليات الأهلية، القاهرة، ١٩٦٨م.

٨. أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم القاضي، كتاب الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٥٢هـ.

٩. احمد سلامة، حماية البيئة في الفقه الإسلامي، مجلة الاحمدية، دبي سنة ١٩٩٨، ص ٢٩٥، عن احمد فتح الله الزيايدي، www.islamicrabta.com.

١٠. احمد عبد الرحيم وعوض، ود. احمد عبده، قضايا البيئة من منظور اسلامي، مركز الكتاب للنشر، ط ١، القاهرة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ٧٢-٧٦.

١١. احمد مالكي، ابن خلدون والعمران البشري من منظور فقه السياسة (إعداد)، موقع: تادارات مركز الدراسات الاباضية، <http://www.taddart.org>

١٢. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء الشافعي (ت ٥١٦ هـ)، تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل /، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٤٠٦ هـ.

١٣. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ هـ، كتاب جمل من أنساب الأشراف حققه وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار، والدكتور رياض زركلي / بإشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع / الطبعة الأولى: ١٤١٧ هـ.

١٤. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، أحكام القرآن، ضبط نصه وخرج آياته عبد السلام محمد شاهين / ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م / دار الكتب العلمية بيروت لبنان. الحر العاملي، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٦٦ ب ١٩ ح ١٩٩٦.

١٥. حمد إبراهيم منصور، عدالة التوزيع والتنمية الاقتصادية: رؤية إسلامية معاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٣٢٧.

١٦. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن محمد

بن عمر بن محمد (ت ٥٣٨هـ) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عبد الرزاق المهدي، بيروت دار إحياء التراث العربي، ب ت ط

١٧. صاحب أبو جناح، السياسة الإدارية عند الإمام علي عليه السلام قراءة في عهد التولية لمالك الأشتر: <http://arabic.balagah.net/content>

١٨. الطوسى، ابو جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، الناشر: مكتب الاعلام الاسلامي طبع على مطابع: مكتب الاعلام الاسلامي الطبعة: الاولى، ١٤٠٩ هـ، ١٥ / ٦.

١٩. عبد الهادي علي النجار، الإسلام والاقتصاد، سلسلة عالم المعرفة (٦٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣، ص ٦١.

٢٠. عزيز السيد جاسم، علي سلطة الحق، تحقيق: صادق جعفر الروازق، الغدير للطباعة والنشر، قم، ٢٠٠٧م.

٢١. فؤاد عبد المنعم أحمد، السياسة الشرعية وعلاقتها

بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، جدة، ٢٠٠١، ص ٥١

٢٢. فؤاد عبد المنعم أحمد، السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة

٢٣. قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني تأليف: صالح طاهر مشوش، موقع المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٤. قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني* تأليف: صالح طاهر مشوش، موقع المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٥. القرافي: شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت: ٦٨٤ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٩٩٨ م.

٢٦. القرطبي: محمد بن احمد بن ابي بكر (ت ٦٧١ هـ): الجامع لاحكام القرآن المعروف بـ(تفسير القرطبي)، تحقيق: احمد عبد العليم البردوني، مطبعة دار الشعب- القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢ هـ.

٢٧. الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود (ت ٥٨٧ هـ) بدائع الصنائع:، دار الكتاب العربي

- بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٢٨. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، ط٥، بيروت، ٢٠٠٥م.
٢٩. محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ط١٩، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٣٠. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، مركز الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.
٣١. محمود المظفر، الثروة المعدنية، دار الحق، ط٢، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨.
٣٢. منذر عبد الحسين الفضل، الملكية ووظيفتها الاجتماعية في الشريعة الإسلامية، مجلة الحقوق، السنة السادسة، العدد الأول ١٩٨٢، ص ١١٣ الكويت.
٣٣. موقع: موسوعة الانسنة المتوسطة.
٣٤. الميزان في تفسير القرآن/ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ) ط٣، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٣هـ. وطبعة ثانية، ط ١ المحققة، بيروت، ١٤١٧هـ.

٣٥. نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، ط ٤، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦.
٣٦. اليعقوبي: احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، (ت ٢٨٤ هـ)، تاريخ اليعقوبي، نشر دار صادر - بيروت (د.ط) (ب.ط)

المحتويات

مقدمة المؤسسة:	٥
المقدمة	٩
المبحث الأول: المقاربة الاصطلاحية للعمران ومستوياته البنوية ١٤	
المستويات البنوية للعمران:	٢٨
المستوى العلمي والمعرفي:	٣٠
المبحث الثاني: مرتكزات فقه العمران عند الإمام علي (عليه السلام) ...	٣٣
المرتكز الأول: وحدة العمران البشري والاقتصادي:	٣٦
المرتكز الثاني: تحقيق النفع العام:	٣٧
المرتكز الثالث: مرتكز الاستخلاف والتسخير:	٤٥
المبحث الثالث: إجراءات فقه العمران عند الإمام علي (عليه السلام) ...	٦٠
أولا - إجراءات أولية.	٦٠
ثانيا - بيت المال والخراج والعمران:	٦٨
ثالثا - أولوية العمران على جلب الخراج:	٨٠
الخاتمة	٨٩
المصادر والمراجع	٩٢